قصص الحب المعلبة

عبد الحكيم حيدر

وكأن لها بوّابة مرسومة للدخول ونهاية أيضاً يشترك الجميع فيها حتى ضاربة الودع، وعلى الإعلام أن يشترك في وضع اللمسات والنهايات أيضاً، أنت هنا أمام سلعةٍ جميلةٍ محاطةٍ بالمشاعر الدافئة والسفن والشموع وتذاكر الطيران إلى شهر العسل، سلعة أخذت وقتها تماماً في امتصاص فضول المشاهدين حتى آخر قطرة. قصص يروّجها الإعلام من منبتها، همساً وغمزاً حتى قبل أن تبدأ في العلن، وتبدأ القصص دائماً كمكيدة في الخفاء، مكيدة تثير الفضول والأسئلة والظنون، قصص تدخل للمشاهدين حتى من تحت عتبات شققهم وقصورهم وفيلاتهم، لتصل إلى حمّامات السباحة وعروض الأزياء والعطور، قصص تشتعل جمراتُها في الأزمات خصوصا. قصص غير تلك التي تنبت على حوافّ الترع بجوار غيطان البرسيم أو الفول أو القمح أو في مواسم جني القطن بجوار الشجيرات أو بعد الجني وبيع القناطير وتقديم المهور والخلاخيل والحلقان والصناديق، قصص ريعها من ماء الأحلام ومجوهراتها على «صاحب المحل» والخسائر والمكاسب لا تؤثر من قليلٍ أو كثيرٍ على أرصدة الأحبّة في الوصل والفراق، فكل طرفٍ قد كسب حضوراً ما، وما الألمُ الخفيف سوى عربون محبّة لم تستمر، ومكائد العوازل لها فعل السحر في القصص.

قصص يشترك فيها المنتج من بعيد مع كاتب السيناريو مع صاحب الورشة في الوقت الذي يسيل فيها عرق العاملين بالقطعة في حواشي السيناريو الأصلي الذي لا يعرف صاحبه من كثرة التفاصيل مع تدخل الساحر الكيني كل آن بالبخور في السيناريو، وقد يستبدل الساحر الكيني بساحر آخر من الهند يقوم بحرق السيناريو المكتوب فوق جمرات المبخرة، ويأخذ العاملون بالقطعة في الإعلام أجورهم مع بقيّة المخبرين وناقشات الحناء في الفنادق بعد ما تنفض السهرة في الفندق على حساب المنتج أيضا وفي حضور النجمة مع دموعها بالطبع ومناديلها.

قصص لزوم أن يظل المحلّ عامراً بالحكايات في أول الأسبوع ووسطه وآخره، وصاحب المحل هناك يدفع فواتير الخسارة مع المنتجين بعد ما أصبحوا في الظل تماما وظهر البدلاء في العلن، وظهر مستورد وصاحب محلات العطور بعد ما حضر بطائرته الخاصة من روما خصيصا من أجل الحدث، ودفع فاتورة الفندق للمرة الثالثة ودفع أيضا تكاليف حفل الزفاف، ابتداء من التورتة حتى ثمن الحصانين، حتى ثمن ثعابين السهرة، ثعابين ضخمة تم إحضارها من «أبو روّاش» ورجعت في الليلة نفسها، وكانت من لزوميّات الضحك والصراخ في نصف الليل.

قصصٌ مثل الوجبات الجاهزة التي تعد في الأفران مرتفعة الحرارة أمام عيون الزبون، كموضة مصمّم الفستان الذي يتشابه في خياله مع مصمّم قصة الحب وقد تدرب في أرقى بيوت الأزياء في باريس على حساب النجمة نفسها بعدما فاضت عيونها بالدمع بسخاء مع جيوبها بالمال، وعادت بآلاف الفساتين الأخرى من باريس أو لندن وقد زاد وزنها بشكل ملحوظ وظهرت خطوط الحناء في كفّيها مع الألماس، وقد عادت بكل نسخ الأفلام التي رأتها هناك وصورها مع أبطال المهرجانات والأفلام هناك.

قصص لزوم ملء الفراغ العاطفي الذي يمر به الناس في الأوطان السعيدة جدا أمام البرامج الهادفة جدا والملاعب الرياضيّة المليئة لآخرها بالمشجعين.

قصصٌ يتم تسبيكها مع الجديان والزبيب، وهي مثل مسلسلات «زهرة وأزواجها التسعة»، وعمل مائة حلقة إضافية بقلم شاب تحت اسم «النجار وبناته التسع» أيضا، نكاية في المنتج الأول الذي كان من الباطن، بعدما ترك الفن كله ويتاجر الآن في كندا في الحديد الخردة. قصصٌ تحتاج إلى ناقد محترف، ولا تحتاج إلى حرفة في الكتابة، قصص لها إيقاع الشهرة التي تأتي سريعا وتذهب سريعا ولكن وراءها كاميرات وعلماء نفس واجتماع وشهود عيان على عقد الزواج.

قصصٌ تستمر طويلا في الخيال، لأن أصحابها على قيد الحياة وفي انتظار معجزةٍ كي تسير مراكبهم قبل أن تخرب البنوك بما فيها، وتحضر تلك العرّافة الغامضة التي تعيش في الهند مع دجاجاتها، وكانت قد تنبّأت، كما قالت النجمة وهي تمسح دموعها، بكل ما حصل لها من قبل أن تبدأ قصتها بعشرين سنة وهي طفلة.

العدوان الصهيوني والصمت العربي

سمير حمدي

لا يمكن إنكار حالة التضامن الشعبي الواسعة التي عرفها الشارع العربي مع بدء العدوان الصهيوني على غزة، ويمكن ملاحظة ردود الفعل القوية والناقدة لمواقف الحكام العرب أو لشخصيات عامة من فنانين ورياضيين وكتّاب لم تكن مواقفهم ترقى إلى مستوى اللحظة ولا تستجيب للمزاج العربي العام المنحاز إلى القضية الفلسطينية، ولعبت مواقع التواصل دوراً مهماً في تشكيل توجه شعبي مناهض للعدوان الصهيوني ومتعاطف مع المقاومة الفلسطينية.

غير أن هذا التوجه العام على أهميته لم يكن سوى نوع من التعاطف في حده الأدنى، أعني لم يمتلك ما يكفي من الفاعلية والتأثير ليغيّر مواقف الأنظمة الرسمية العربية.

يفسّر توصيف الوضع العربي الحالي حالة الانكماش لدى الجماهير العربية والتي تعود إلى أسباب مختلفة، أبرزها ضغط الأنظمة السلطوية الحاكمة والتي تحرص على قمع الشارع ومنعه من التعبير عن ذاته، خاصة بعد تجربة الثورات العربية الموؤودة والتي خلقت حالة من التوجس لدى الأنظمة الرسمية وجعلتها تحاول إخماد أي نفس تحرري لدى الشارع حتى في نصرته للقضية الفلسطينية، وقد توخت هذه الأنظمة أسلوبين في خداع الشارع والتلاعب بالجماهير، إما من خلال الظهور بمظهر المدافع عن الفلسطينيين من خلال التصريحات والشعارات دون المرور إلى مرحلة الأفعال التي تقدم دعما حقيقيا لأهل غزة، أو من خلال إغراق الجمهور في الحفلات ودفعه إلى اللامبالاة إزاء ما يجري لأشقائه الفلسطينيين.

وما زاد في ضعف الموقف العربي تجاه العدوان الصهيوني هي حالة الانقسام العربي الشامل، ففي المرحلة الراهنة حتى التضامن في حده الأدنى مفقود. بل ثمة تمزّق عربي يمتد من العداء وصولا إلى العزوف والابتعاد عن القضية الفلسطينية. والحقيقة أن النفوذ الغربي المسيطر على السياسات العربية، المقترن بشعور ضمني بالعجز العسكري أمام الكيان الصهيوني أضعفا إلى حد بعيد الشعور بالحاجة إلى التضامن العربي.

وأصبح التمزق العربي ورقة رئيسية في يد الكيان الصهيوني. ولسنا بحاجة إلى كثير من النباهة لنلاحظ الصراعات التي تشق الدول العربية بين الأنظمة في ما بينها (نموذج الصراع المغربي الجزائري) أو الحرب الأهلية في دول مثل السودان وسورية وإلى حد ما ليبيا، أو الاتجاه إلى قمع المعارضة الداخلية كما يجري في تونس ومصر وانتهاء بدول تكاد تصطف مع العدو.

إن النظام السياسي والمؤسسي العربي يميل بلا شك إلى الانفصال عن المجتمع، والقادة السياسيون قد يشبهون المواطنين وقد لا يشبهونهم، وقد يأخذون أو لا يأخذون في الاعتبار رغبات مواطنيهم، لكنهم في كل الأحوال يقررون وحدهم وإرادتهم تتطابق مع القانون. وهو ما يعني عمليا اختفاء «إرادة الشعب» - أيًا كان المعنى الدقيق الذي يُعطى لهذا المفهوم - هو جزء من سياق أكثر عمومية بكثير، بمعنى لم تعد الأنظمة تسعى إلى إرضاء شعوبها أو الاستجابة إلى تطلعاتها ولو ظاهريا وفي المقابل أصبحت الشعوب تميل إلى الأساليب الأكثر أمنا والأقل كلفة في مواجهة توجهات الحكام وبالتالي الاكتفاء بالتعبير على مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما يفسر إلى حد ما حالة الصمت التي أصبح يشهدها الشارع العربي وغياب المظاهرات المؤيدة لفلسطين الضاغطة على الأنظمة الحاكمة، رغم أن بداية العدوان الصهيوني صاحبتها تحركات جماهيرية لا يمكن إنكارها في دول عربية شتى. وإذا أخذنا بالاعتبار غياب دور الأحزاب والمنظمات الجماهيرية التي فقدت «الوظيفة التجميعية»، أي القدرة على تعبئة الجماهير وتأطيرها، مضافا إليها الدور المحتشم لما يسمى النخبة، يمكن التأكيد أن حالة الصمت العربي ستتواصل دون أن يعني هذا نفي حالة الترقب في الشارع العربي إزاء العدوان الصهيوني ومواقف الأنظمة المتخاذلة والصمود الأسطوري للمقاومة الفلسطينية، وهي عوامل مجتمعة قد تتحول إلى قادح لزناد ثورات عربية جديدة تخشاها الأنظمة ولا يمكن توقع ما يمكن أن تفضي إليه مستقبلا.

(كاتب تونسي)

ماذا فعلت بنا غزّة؟

حلمي الأسمر

من لم تغيّره غزّة، فليراجع إنسانيته وعقيدته..

السؤال الذي ما فتئ يلحّ على كل منا، أو على الأقل على من بقي لديه شيءٌ من الحسّ الإنساني، ماذا فعلت بنا غزّة، بعد ما فعلت الأفاعيل بأهلها؟ كيف من الممكن أن نعيش حياتنا الطبيعية ونحن منذ مائة يوم ويزيد نرقُب المشهد الأكثر دمويةً ووحشيةً وغرابةً في التاريخ الحديث؟ هل يمكننا حين نجلس إلى مائدة الأكل، ونتناول ما لذّ وطاب من الأطعمة، أن لا نستحضر بشرا مثلنا لم يروا رغيفا ساخنا، أياما أو أسابيع أو أشهر؟ دعك من الذين «رحمهم» الله ومضوا إلى ربهم قصفا أو جوعا أو عطشا أو مرضا، أو قنصا، ماذا عن الذين بقوا يتجرّعون مرارة فقد الأحبة، وأبسط مستلزمات الحياة الطبيعية، من مأكل وملبس ومأوى، و«أمن» ولا مكان آمنا في غزّة، ولا أكل أو ماء أو ملبس بالسهولة التي يعتادها البشر العاديون؟ بعضنا لا يستطيع أن يصحو من غيبوبة النوم من دون أن يأخذ حمّاما ساخنا وفنجانا من القهوة، ماذا عمن يحلم بوجبة طعام، أي طعام، حتى ولو كان طبقاً من العدس «يجود» به أحدهم، وينتظر من يحصل عليه ربما ساعة أو أقلّ أو أكثر، ليعود بوجبة يتحلّق عليها أطفاله؟

هي أشياء صغيرة، أو هكذا تبدو، فما بالك بملايين التفاصيل اليومية التي نمارسها، من دون أن ننتبه إلى أن ثمّة إخوة لنا، على بعد صرخة أو أنّة، لا يمكن أن يحصلوا عليها إلا بشقّ الأنفس؟ إن حصلوا عليها طبعا، دعك من مشاهد الموت اللحظي التي تُحاصر مليوني إنسان، أنّى توجّهوا، وحيثما نظروا!

ما الذي تغير بعد غزّة؟ كل شيء، بلا استثناء، غزّة غيّرت حياتنا، غزّة لم تقلب موازين السياسة والحرب في العالم. غزّة قلبت حياتنا رأسا على عقب، منذ مائة ويوم وعشرة أيام لم يعد (أنا) هو أنا. لم نعد نستطيع أن نعيش كما كنّا وفق روتيننا الماضي، كل شيء تغيّر. أقسم أنني لم أضحك من قلبي منذ مائة يوم إلا مرّة أو مرّتين. وبالغلط.

أعادت غزّة صياغة كل شيء. غزّة تستحقّ النصر، ليس فقط لأنها صمَدت مائة يوم خلت، ولا تزال مترعةً بالصمود، بل لأنها أعادت صياغة كل شيءٍ، ليس في حياتنا نحن، عربا ومسلمين، بل في حيوات ملايين البشر في العالم.

في اختبار غزّة ثمّة من نجح، ولكن كثيرين سقطوا، أولهم وربما أهمهم النظام العربي الرسمي الذي انحاز بشكل فادح للعدوان من دون أن يرف له جفن، وهكذا تخفّف من أي شرعيةٍ لاستمراره، وقال لنا بملء الفم إنه منحاز للجهة التي لا نقف فيها نحن الشعب، قال لنا، بلغةٍ لا تقبل التأويل، إن رأينا ليس مهما، ولا مشاعرنا ولا دم إخوتنا، وإنه مستعدٌّ، عمليا، للتضحية بنا كُرمى لعيون الكرسي الذي يجلس عليه. ثانيهم بعض الأنظمة التي عوّلنا عليها، واعتقدنا أننا نخبّئها ليومنا الأسود، كتركيا مثلا، التي لطالما تغنّينا بمواقفها «الصلبة» بقيادة «السلطان» أردوغان، الذي فتح لنا بابا من أبواب الأمل، سرعان ما صفقه في وجوهنا، فأثبت أنه ظاهرة صوتية، بالنسبة لقضايانا نحن العرب والمسلمين. صحيحٌ هناك حسابات خاصة به وببلاده، وهي مشروعة، لكن إحساسنا أيضا بالخذلان مشروعٌ هو أيضا، فحتى تهديدُه الدائم بمحاكمة الكيان الصهيوني في المحاكم الدولية لم يقم به، و«تطوّع» به نظام جنوب أفريقيا الذي لا هو عربي ولا مسلم.

ثالث الساقطين المنظومة الأخلاقية الغربية التي أشبعتنا مبادئ ومواعظ عن حقوق الإنسان والقانون الدولي «الإنساني!» وسوى هذا من أخلاقياتٍ ثبت أنها لا تساوي الحبر الذي كتبت به، وأنها خاصة بالعرق الأبيض دون سواه.

> أعادت غزّة صياغة كل شيء. غزّة تستحقّ النصر، ليس فقط لأنها صمَدت مائة يوم خلت، ولا تزال مترعةً بالصمود، بل لأنها أعادت صياغة كل شيءٍ

رابع الساقطين كل التنظيمات الفلسطينية أو معظمها، التي تحوّلت إلى أحزاب بيانات وزعامات «تاريخية»، وفي مقدمتها حركة فتح، فقد كنست غزّة كل حب لهذه التنظيمات من قلوب الملايين الذين تطلعوا لها باعتبارها ممثلهم «الشرعي والوحيد» وتم «تكييش» كل ذلك الأمل والحب للتنظيمات التي ناجزت العدو وقهرته وصمدت في وجه آلته الحربية المتوحّشة، وألحقت به أذىً لن يزول، وتركت في وجه كل صهيوني ندبة ستذكّره ما حيي ببصمة المقاومة وقوتها.

أما خامس الساقطين فتنظيمات «الجهاديين» الإسلامويين الذين يتمرجلون على المسلمين العزّل بعملياتهم التفجيرية العمياء، ولم نسمع لهم صوتا في ذروة الحالة الجهادية الحقيقية في غزّة، ولم يفلحوا إلا في «جهاد النكاح» وزواج «السبايا» وقطع رؤوس الأبرياء بتهم ملفقة، هؤلاء «الجهاديون» لم نر جهادهم في ذروة جهاد غزّة، فإن لم يظهر هذا الجهاد اليوم فمتى؟

سادس الساقطين فعلا وقولا شيوخ السلاطين من عبيد الأوثان الجدُد الذين يسمّونهم «أولياء الأمر»، ويعتبرون طاعتهم واجبة حتى في عهرهم وخيانتهم الأمة، وإمعانهم في إيقاد نار الفتن وشقّ الصف، وتبديد ثروات الأمة في مشروعاتٍ سخيفةٍ تعبّر عن أحلامهم المريضة وشهوتهم لجمع المال، وقهر العباد، فكيف يمكن، من بعد، سماع خطبهم وجعجعاتهم ومواعظهم؟

أما سابعهم فهو «كلبهم» من نخب السلاطين و«مؤثري» شبكات الإعلام الشعبي والتقليدي، من بائعي الفكر المخصي، وثقافة الشهوة، وتشويه الوعي الجمعي وإفساد الذوق العام، وبيع «منجزات» أنظمة القمع والإرهاب، وكنّا نظن، وهو إثم هنا تحديدا، أن «طوفان الأقصى» كان كفيلا بإيقاظ ضمائرهم إلا أن ظنّنا غفل عن أنهم بلا ضمير أصلا، فأنّى له أن يصحو؟

أما الخاسر الأكبر قبل هذا كله في معركة غزة وبعده فهو ما سمي «السلام» والتطبيع، فقد بدا هذا الشيء وهماً ذرته رياح غزّة وعواصفها وأوجدت واقعا جديدا، هذا الواقع قبل غزّة وطوفانها، كنا نتطلع فيه لتحرير القدس، لكننا اليوم بتنا نتطلع لتحرير صفد ويافا وتل أبيب والكرمل، قد يبدو هذا الكلام متّسعا أكثر من اللازم، ولكنه بعد غزّة وطوفانها غدا قريبا وواقعيا، جدا!

نحن الآن لسنا بصدد تحرير القدس فقط، بل ما بعد بعد تل أبيب فعلا لا قولا. ... قد يبدو هذا الكلام متسعا أكثر مما يجب. لكنه واقع جديد فرضه الطوفان. غزّة غيّرتنا، وغيّرت العالم، وهي تتعرّض لحرب عالمية كبرى، وهي بمساحتها الصغيرة قد لا تزيد عن مساحة «مول» في دولة كبرى، ومع هذا تصمُد وتناجز وتنتصر، فأنّى لها أن لا تغيّر كل شيء؟

(كاتب من الأردن)

كاريكاتير **عماد حجاج**

هل بات الأسد راغباً في التخلص من هيمنة طهران؟

غازي دحمان

لا يبدو أن علاقات النظام السوري مع إيران تسير بدون مشكلات وتعقيدات في هذه المرحلة، فالخلاف بين الطرفين جرى التعبير عنه في تفاصيل جارية، وترتيبات مستقبلية يزمع نظام الأسد إجراءها، وثمّة مؤشرات عديدة على وجود أطراف ثالثة ربما قدّمت عروضا للأسد شريطة تخفيف ارتباطه بإيران.

أن تخرج أصوات من طهران تطالب باعتقال الجواسيس الذين يقدّمون المعلومات لإسرائيل لاستهداف قيادات الحرس الثوري، فذلك مؤشّر على مستوى عال من الغضب الإيراني على نظام الأسد، بل أكثر من ذلك، اتهام صريح بوجود اختراق لمنظومة الأسد الضيّقة بالعمالة لإسرائيل، بالتذكير بأن الجاسوس الإسرائيلي، إيلي كوهين، كان قد وصل إلى منصبٍ مهمّ في هيكلية الحكومة السورية في ستينيات القرن الماضي.

في الفترة الأخيرة، أقدم نظام الأسد على إجراء تغييراتٍ على مستوى الأجهزة الأمنية، بالإضافة إلى القيام بإجراءات على مستوى الجيش، بدا أن الهدف منها بناء منظومة عسكرية تكون للأسد السيطرة الكاملة عليها، بديلاً عن المنظومة المُخترقة بشكل فاضح من اللاعبين الخارجيين، وخصوصا إيران، ويبدو أن ثمّة طرفاً خارجياً قدّم للأسد وعوداً بتمويل بناء هذه المنظومة، وذلك ما يبدو جليّا من خلال حجم المكافأة التي يتم طرحها للراغبين في التطوّع في هياكل جيش النظام.

من الواضح أن تداعيات حرب غزّة، والاحتمالات التي تنطوي عليها، وخصوصا لجهة احتمال توسّع نطاق الحرب ليشمل دولاً إقليمية، كان لها صدى لدى نظام الأسد، الذي جرى إبلاغه، منذ بداية الحرب، بأن يأخذ جانب الحذر قدر ما يستطيع، كما أشارت تقديراتٌ إلى أن استمرار بقاء الوضع السوري على حاله، أي سيطرة إيران وميليشياتها على الأوضاع، سيرسّخ معادلات أمنية لم تعُد مقبولة إقليميا ودوليا، وبالتالي، للخروج من هذا الوضع يستلزم إرباك خطط إيران وترتيباتها الإقليمية من خلال إزاحة الأسد وتشكيل بديلٍ لنظامه في دمشق. وتفيد الترتيبات الروسية أخيرا بأن موسكو التقطت الفكرة، أو جرى إشراكها بطريقة معيّنة بالمعلومات والسيناريوهات التي يتم إعدادها، أو حتى وضعها أمام خياراتٍ محدّدةٍ لإدارة الجبهة السورية تحت التهديد باتخاذ إجراءات حاسمة غير التي تم اتخاذها على مدار سنوات الحرب السابقة، والتي اقتصرَت على توجيه ضرباتٍ لبعض المراكز أو المنشآت، إذ من الواضح أن تطوّر الضربات الإسرائيلية في سورية يشير إلى تدحرج العمليات إلى ما هو أبعد من قتل بعض القيادات الإيرانية.

وفيما يبدو محاولة لاستباق مثل هذه السيناريوهات، أعادت القوات الروسية انتشارها على خط الحدود الفاصل بين الجولان ومناطق سيطرة النظام، في محاولةٍ لمنع المليشيات الإيرانية من تشكيل بنية عسكرية في هذه المنطقة تحاكي التي أسّسها حزب الله في جنوب لبنان، وهو أمر تعتبره إسرائيل خطّا أحمر، ويبدو أنها قرعت جرس الإنذار الأخير لروسيا، التي أرادت في مرحلة من مراحل الحرب مساومة إسرائيل على موقفها من الحرب الأوكرانية بالضغط عليها من جبهة الجولان.

لا تعمل روسيا منفردة في هذا السياق، والأرجح انها تنسّق مع أطرافٍ عربية أخرى لديها قنوات اتصال مع واشنطن، التي لا تريد توسيع الحرب في المنطقة، وقد يكون لتخفيف نظام الأسد علاقاته مع إيران ثمناً سياسياً واقتصادياً معيناً، كما حصل حافظ الأسد على ثمن مشاركته في حرب تحرير الكويت، ويحتاج الأسد الابن في هذه المرحلة إلى فرصةٍ من هذا النوع لإعادة بعث الحياة لنظامه، أقلّه للخروج من ورطة أن يكون ثمناً لطموحات إيران في المنطقة.

> ما يهم الأسد حماية رأسه الذي أصبح في صلب المساومات الإقليمية

بالنسبة للأسد، سيظهر، إذا استطاع التقدّم في مسار تخفيف التأثيرات الإيرانية على نظامه، وكأنه يطبّق المبادرة العربية، التي تطلب منه، بعد إجراء حزم من الترتيبات الداخلية، إنهاء الوجود الإيراني، وبالتالي، سيكون حرق المراحل لتحقيق الانفتاح العربي عليه، الذي هو مقدّمة لانفتاح دولي، وفي الوقت نفسه، تصبح مسألة تقديم تنازلاتٍ داخلية مسألةً قد تجاوزتها الأحداث، وتفصيلاً غير مهم في ظلّ مساهمته في التأثير على مسارات الصراع في المنطقة التي يُراد لها التجهز لخرائط جيوسياسية جديدة تكون إيران خارجها. ولكن، إلى أي مدىً يستطيع الأسد السير بمسار تفكيك العلاقات مع إيران؟ وما هي المدة التي ستستغرقها إجراءات الأسد لتشكيل واقع خارج عن الهيمنة الإيرانية؟ وهل ستسمح له طهران بالتغريد بعيداً عن نفوذها؟ المؤكّد أن ما يهمّ الأسد حماية رأسه الذي أصبح في صلب المساومات الإقليمية، وبالتالي، ستكون إجراءاته وسياساته في المرحلة المقبلة انعكاسا لشعوره بالتهديد وبحثه عن أفضل طرق الحماية.

(كاتب فلسطيني في فرنسا)

إيران التي تعتاش على عدالة قضايانا وضآلة دولنا

دلال البزري

طهران دائماً في الواجهة، منذ بداية حرب غزة. بفضل وزير خارجيتها، حسين أمير عبد اللهيان، ووكليها في لبنان، حزب الله. الأول يروح ويجيء إلى لبنان، محذراً إسرائيل من أنه «إذا وصلت إلى كذا... فسوف نرد بكذا...»، رافعاً سقف تهديداته إسرائيل، والثاني يستعيد قواعد الاشتباك مع إسرائيل، ويفتح جبهته المعهودة في جنوب لبنان. ومع الوقت، تطوّرت الهندسة الإيرانية للرّد على إسرائيل. أخذت مسافة من حركة حماس، بإعلان وكيلها حسن نصر الله عن فلسطينية عملية «الطوفان...»: «مائة بالمائة فلسطينية». بعدما تبيّن لقادتها أنه لن يكون في وسعها خوض تلك الحرب العظمى ضد إسرائيل، التي سخّرت من أجلها مليشياتها المشرقية. ولا في وسعها ان تطبق «وحدة الساحات»، شعارها الأول. مع أن الفرصة سانحة ونادرة.

فجرَت المعركة على نحو شيءٍ من الغرابة: «حماس» تُحارب في غزّة وأهلها يُبادون، وإيران الوصية، تترجم نظرية «وحدة الساحات» على ذوْقها، فتشتّتها عبر أحصنتها القوية، مليشياتها، بالهجوم على أهداف أميركية إسرائيلية متفرّقة. من لبنان والعراق واليمن، وأحيانا سورية. ومعتمدة على قواعد اشتباك إقليمية، تردِّد معها أنها لا تريد حرباً «حقيقية». أي أنها مقابل الحرب الشاملة على غزّة، تردّ إيران بحربٍ تتناثر فيها الشظايا هنا وهناك، فلا تُحدِث إلا خسائر قليلة للعدو في معركته «الوجودية» ضد الفلسطينيين، ولا تمنعه من قتل وجرح ودفن وتدمير وتعطيش وحصار بنسَب مهولة.

ومن تجليات «قواعد الإشتباك» هذه أن إيران عندما تريد أن تضرب أعداءها الأميركيين والإسرائيليين، تكلّف مليشياتها بذلك: حزب الله اللبناني، المقاومة الإسلامية العراقية، والحوثيين في اليمن. أما عندما تكون أهدافها «محلية»، عراقية، سورية أو باكستانية، فإن حرسَها الثوري يقوم بالمهمة. لا تلوّث يديْها بدماء أميركيين أو إسرائيليين. ولكنها تملك الأريحية الكاملة لقتل عراقيين، أكراد خصوصاً، أو سوريين، أو باكستانيين من إثنية البلوش.

هذا الذي حصل في أواسط الشهر المنصرم: صواريخ بالستيّة على أربيل، عاصمة كردستان العراقي؛ على إدلب، شمال شرقي سورية، حيث تحكم هيئة تحرير الشام؛ ثم بلوشستان الباكستانية. والبلوش أقلية مضطهدة محرومة من استقلالها ومواردها، وهي موزّعةٌ على كلا الجانبين من الحدود الإيرانية الباكستانية. وكانت حصيلة الهجمات الثلاث قتلى مدنيين، من بينهم نساء وأطفال.

عن صواريخها البالستية على أربيل، قالت طهران، إنها استهدفت «مراكز تجسّس صهيونية» هناك، وإن هذا المنزل الذي دمّرته وقتلت صاحبه وابنته هو «المكتب الرئيسي لجهاز الموساد» في هذه المدينة، وإن العملية أتت ردّا على اغتيال قادة لـ«المحور» في لبنان وسورية. أما على إدلب، فقالت إن ضرباتها كانت «ردّاً على التفجير الانتحاري في كرمان» ضد زوّار مرقد قاسم سليماني، والذي أوقع بينهم عشرات القتلى. بما أن «الدولة الإسلامية» أعلنت مسؤوليتها عن تنفيذه، فان نيرانها كانت تقصد «الإرهابيين». وفي باكستان، ركّزت الصواريخ الإيرانية على منطقة البلوش، حيث يتمركز «حزب العدل» الانفصالي الذي تصفه أيضا بـ«الإرهابي»، ويقع على حدودها مع باكستان.

كيف كانت ردود أفعال قادة الدول المستهدَفة أراضيها بالصواريخ الإيرانية البالستية؟... كانت باكستان الأسرع والأقوى. بعد 48 ساعة، ردّت على إيران. وأعلن جيشها أنها ضربت بالدرونات والصواريخ والذخائر، أهدافاً في بلوشستان أيضاً، تخصّ هذه المرّة أعضاء في «جيش وجبهة تحرير بلوشستان»، فكان تبريد وشبه مصالحة، وإمساكٌ عن المتابعة. لا نعلم تماماً كل حيثياتها، فالشرق الأقصى بعيد، وأفغانستان على حدود الدولتين ... ولا ننسى أن باكستان تملك السلاح النووي.

درجة العراق أقلّ. تكلّم كثيراً: حكومته استنكرت «الاعتداء»، وقاسم الأعرجي، مستشار الأمن القومي العراقي، كذّب الإيرانيين بأنهم استهدفوا مركز الموساد في أربيل. ووزارة الخارجية أعلنت عن عزمها رفع في مجلس الأمن ضد إيران، وكذلك عن استدعاء سفيرها في إيران لـ«التشاور». وبقيت سورية على صمتها. أكانت حكومية، بلسان بشار الأسد، أم إدلبية، ممثّلة بـ«أحرار الشام». برّرت إيران هذه الضربات، عن طريق الناطق بالخارجية، ناصر كنعاني، الذي وصفها بأنها «حقٌّ شرعي لإيران بردع كل التهديدات التي تنال من أمنها الوطني»... والقادة الأميركيون ردّدوا من بعده أن إيران مع ذلك «لا تريد الحرب»، وأن هذه الضربات «متهوِّرة، غير دقيقة»، وأن إيران ليست «محبوبة» في العالم... فيما الناطق باسم الحكومة الإسرائيلية علّق على هذه الضربات: «ندين أعمال إيران وندعو الأسرة الدولية أن تنهض وتتحدّى إيران وتدعو إلى السلام في المنطقة». يجدر بالتعليق الإسرائيلي السخرية والتندّر، وكذلك الأميركي، فيما المسلك الإيراني مثير للشكوك.

لماذا؟ لأن عشية الضربات كان العراق يتفاوض مع الأميركيين لسحب جنودهم الألفين والخمسمائة من العراق. وهذا طلبٌ أقرّه البرلمان العراقي منذ عامين إثر اغتيال قاسم سليماني على أراضيه. وقد تجدّد الطلب، أخيرا، عندما اعتدت قوات أميركية على قواعد مليشيا حزب الله العراقي في بغداد أيضا. ومن بين إجراءات الانسحاب تشكيل لجنة عراقية - أميركية لمناقشة تنسيقه، واجتماع رئيس الوزراء العراقي، محمد شياع السوداني، مع الأمين العام للأمم المتحدة، غويتريس... فهل تشكّل ضربات إيران على أربيل درباً لتسريع الانسحاب الأميركي، أم تأجيله؟

أيضاً: بعد الضربات الإيرانية، في دافوس، في أثناء جلسة نقاش بينه وبين الصحافي الأميركي فريد زكريا بشأن الحرب على غزّة، يدافع وزير خارجية إيران عن بلاده، بأن كل أعمالها «غرضها السلام والأمن في العالم»، بشرط أن تكون أميركا «أقلّ عدوانية»... وبخصوص ماذا؟ «النووي الإيراني»، يجيب. فيتابع معاتباً الإدارات الأمريكية المتعاقبة على نقض الاتفاق النووي مع بلاده، خاتماً بأن «لا فرق بين أوباما وترامب وبايدن»...

> عندما تريد إيران أن تضرب أعداءها الأميركيين والإسرائيليين، تكلّف مليشياتها: حزب الله اللبناني، المقاومة الإسلامية العراقية، والحوثيين في اليمن

الحقد على الأكراد لا تستطيع إيران إخفاءه. وضربة أربيل العنيفة تعيدنا إلى سنتَين مرّتا، عندما خرج ملايين الإيرانيين والإيرانيات في انتفاضة مشهودة احتجاجاً على مقتل مهسا أميني، الشابة الكردية العشرينية، على يد شرطة الأخلاق الإيرانية، بسبب حجابها «غير اللائق». في هذه الانتفاضة، سار شعار «المرأة، الحياة، الحرية»، الذي انتشر وحمل تضامناً عالمياً مع الإيرانيات. لكن ما لم نعلمه وقتها أنه، أي الشعار، هو من وحي عبد الله أوجلان، زعيم حزب العمّال الكردستاني التركي، السجين منذ دهر، والذي منح أكراد الدول الأخرى نفسَاً نسوياً لم يكن بوسع طهران غير البطش به بكل ما أوتيت من عنف. وبما أن طهران تعسّفت ضد الخمسة عشرة مليون كردي الواقعين تحت سلطتها، يبقى عليها إنهاء العمل مع أكراد العراق، بحجّة إسرائيل وأميركا. وهل يوجد حافزٌ أثمن من هذه؟

إيران دولة طفيلية بكل معنى الكلمة: النبْتة الطفيلية تجدها في الطبيعة، تتغذّى على حساب نبْتةٍ أخرى تستضيفها رغماً عنها. وهي يمكن أن تستمر حياتها كلها على هذا النحو، إلا في حالة واحدة عندما تموت النبْتة المضيفة بعد تدهور حالتها، إثر نقص الغذاء الذي تسبّبت به الطفيلية الجشعة. هكذا هي إيران: تستضيف نفسها بمليشياتها القاتلة على دول هزيلة، ولكن أهميّتها أنها تملك كنوزاً من العطايا: من عدالة قضية فلسطين، إلى خذَلان دولها وكسلها، ووحشية إسرائيل وتواطؤ أميركا معها. ويمكن لهذه الحياة أن تستمر طويلاً. ولكن في النهاية، قد تُقتل النبْتة وينتهي عطاؤها، ويتحرّك العرب وتقرّ إسرائيل بحقوق الفلسطينيين وتتراجع أميركا عن انحيازها إليها... فماذا تفعل إيران ساعتها؟ على ماذا ستعتاش لتحقّق قنبلتها النووية؟ أو لتستعيد مجد إمبراطورها الفارسي الخالد، سايروس العظيم؟

(كاتبة لبنانية)

هل ثمّة فرصة لقيام الدولة الفلسطينية؟

زياد بركات

لا يُعرف عن أي دولةٍ فلسطينيةٍ تحدّث الرئيس الأميركي جو بايدن قبل أيام، ولكن ما عُرف أن رئيس الوزراء الإسرائيلي نفى ما قاله بايدن عن عدم معارضته (نتنياهو) إقامتها، وهذا متوقّع، فالأخير مع إبقاء السيطرة كاملة على منطقة غربي النهر، وحتى لو تراجع عن هذا فإنه وحكومته مع السيطرة على منطقة غور الأردن، أي السيطرة على حدود الدولة الفلسطينية المحتملة، ما يجعلها بلا سيطرةٍ على حدودها الخارجية، إضافة إلى سلب سيادتها داخلياً بإصرار نتنياهو على الاحتفاظ بحقّ التدخل العسكري في المناطق الفلسطينية، ما يعني فعلياً إدارة ذاتية، وربما ما هو أقلّ منها (نموذج روابط القرى)، وتحويل السلطة الفلسطينية إلى سلطةٍ بلدية، ورؤساء بلديات يحتفظون ببطاقات الشخصيات المهمّة للتنقل والانتقال.

لا ذِكر من قريب أو بعيد للقدس، والأخيرة تشكل جوهرة التاج في النضال الفلسطيني، ولا للاجئين وسوى ذلك من ملفّات، ما يرجّح فرضية أن عودة الدولة الفلسطينية إلى التداول تهدف إلى تحقيق مكتسبات أخرى يسعى إليها بايدن، وهي إعادة توجيه بنادق الصيد أو شِباكه إلى السعودية، في لعبة إيهام بأن الوعد بدعم حلّ الدولتين يعني أنه تم تطبيقه، ولم يبق سوى مكافأة إسرائيل بتطبيع العلاقات معها. إذا كان ثمّة كرة في الملعب في هذه الحال فهي في مرمى رام الله والرياض، فصحيحٌ أن نتنياهو يرفض دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة، أو ما هو أقلّ منها، فحتى نموذج السلطة المشوّه واللقيط لا يحظى بالحدّ الأدنى من القبول لديه، ورغم ذلك ثمّة فرصة تكاد تكون نادرة لإنشاء دولة فلسطينية، فنتنياهو ليس الطرف الوحيد في المعادلة، فهناك المقاومة، وهناك التغيّر في المزاج الدولي، فغزّة دفعت بصمودها الأسطوري ثمن هذه الدولة مسبقاً، لكن المشكلة الأكثر تعقيداً وبعثاً على السخط تكمن في غياب قيادة فلسطينية جامعة تستثمر اللحظة الراهنة لتحقيق الهدف التاريخيّ لنضال شعبها.

لم يعد ياسر عرفات في رام الله بل محمود عبّاس، والأخير لم يغادر مبنى المقاطعة منذ «طوفان الأقصى» إلا قليلاً، ويظنّ أن الحِراك العربي أو الدولي، كلاهما أو أحدهما، يعفيه من قيادة حملة سياسية لا تهدأ لتوجيه الرياح في اتجاه ما يُفترض أن تتّجه إليه سفن شعبه.

تجاهل أحد مساعدي عبّاس أن السلطة نفسها، بما فيها هو ورئيسه، تحت الاحتلال، وتحدّث بدلاً من ذلك عن حماس باعتبارها حركة انقلابية ومتمردة على الشرعية، وبأنها لا تمثّل إلا نفسها، متناسياً أن ما حدث في زمنٍ مضى تم تجاوزه مؤسساتياً من خلال حكومة الوحدة الوطنية، وميدانياً بتعرّض غزة لأكثر العدوانات عنفاً وإبادة، بما يفترض معه تأجيل الخلافات الصغيرة، وكثيرها أحقاد دنيئة، والانضمام للمقاومة ولو في الحد الأدنى بقيادة جهد دبلوماسي دولي يعظّم مكاسب طوفان الأقصى، ويوجهها نحو الهدف الأكبر للفلسطينيين وهو التحرّر وإنشاء الدولة، وهذا شأن من يفترض أنه يمثّل شعبه لا من يقعد عن مهمة الدفاع عنه.

على السعودية تجنّب ما وقعت فيه السلطة الفلسطينية، فأن يضيّع عبّاس فرصة إنشاء دولة ذات سيادة أمر وأن تضيّعها الرياض شيءٌ آخر، خصوصا أن واشنطن تربط قيامها، على نحو ما، بتطبيع السعودية علاقاتها مع إسرائيل. والمأمول ألا تقبل الرياض بمعادلة العربة أمام الحصان، أي التطبيع قبل قيام الدولة، حتى لو اقترن ذلك بوعود أو ضمانات تعرف السعودية قبل غيرها أن إسرائيل لا تلتزم بها، وأن تصر على أن التطبيع بعد قيام الدولة، أو في موازاتها، وهو ما فُهم من تصريحاتٍ أدلى بها وزير الخارجية السعودي أخيراً. سوى ذلك سيكون إهداراً لفرصة تكاد تكون نادرة لإسناد الشقيق الفلسطيني في معركته الوجودية للبقاء وتقرير المصير.

جدلُ الصهيونية والأمازيغية في المغرب

محمد أحمد بنّيس

يستجدُّ الجدل بشأن علاقة الصهيونية بالأمازيغية في المغرب، بعدما اتهم حزب النهج الديمقراطي، اليساري المعارض، نشطاءَ أمازيغَ بدعم إسرائيل في عدوانها الذي تشنه، منذ أكثر من ثلاثة أشهر، على قطاع غزة، منددا بـ«موجة التّصهيُن (..) في الحقل الثقافي الأمازيغي (..) في ظل الإبادة الجماعية التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني على يد الكيان الصهيوني الغاشم المدعوم من طرف الإمبريالية الأميركية والأنظمة الرجعية»، وداعيا «إلى إسقاط التطبيع مع هذا الكيان، ومقاومة استعمال الأمازيغية لتبريره».

يعود التواصل بين بعض مكونات الحركة الأمازيغية والكيان الصهيوني إلى سنة 2009، حين قام أكاديميون وباحثون من الحركة بزيارة «علمية» لدولة الاحتلال، لأجل المشاركة في ندوة حول المحرقة اليهودية نظمها مركز تفكير إسرائيلي. ثم ما لبثت أن أعقبتها زياراتٌ أخرى اتخذت صبغة ثقافية وتربوية وإعلامية. وشكلت أسئلة المحرقة والذاكرة والهوية والموروث الثقافي اليهودي المغربي و«نشر ثقافة السلم والتعايش الديني وتشجيع الاختلاف» عناوين عريضة في التواصل الإسرائيلي الأمازيغي، الذي سعت دولة الاحتلال لتوظيفه في تغذية اتفاق التطبيع مع المغرب الذي سيرى النور في ديسمبر/ كانون الأول 2020. هذا الاتفاق، الذي عدَّتْه فعاليات أمازيغية آنذاك «نصرا تاريخيا»، تزامن مع تسويق الولايات المتحدة وحلفائها في الإقليم مشروع «صفقة القرن» الذي استهدف تعويم القضية الفلسطينية في تسوية إقليمية مشبوهة.

منح التطبيعُ المغربيُّ الإسرائيليُّ الجناحَ المؤيد للتطبيع داخل الحركة الأمازيغية هامشا أوسع لاختبار عمق التواصل الإسرائيلي الأمازيغي وقدرتِه على مجابهة مناهضي التطبيع في المغرب، بما يعنيه ذلك من تزايد حدة التقاطب الإيديولوجي والفكري في هذا الصدد. غير أن الهجوم الذي نفذته المقاومة الفلسطينية على العمق الإسرائيلي في 7 أكتوبر/ تشرين الأول أربك الحسابات في المنطقة. وكان من الطبيعي أن تُلقي المواجهة بين دولة الاحتلال والمقاومة بظلالها على الحركة الأمازيغية التي سقطت بعضُ مكوناتها في الاختبار الأخلاقي لمقتلة غزة. فقد بدت حريصة، بشكل لا يخلو من دلالة، على النأي بنفسها عن التضامن مع ضحايا العدوان الإسرائيلي، في ما بدا تصفيةَ حسابات إيديولوجية مع اليسار القومي العربي والحركة الإسلامية. ومن ذلك تأكيدُ بعض نشطائها على «إدانة كل أشكال الحرب والعنف مهما كان مصدرها، مع التأكيد على حق الشعوب في التحرر، في إطار الحركات الاجتماعية الديمقراطية (..)». من السهل الوقوف على تناقضات هذا «الوضوح في المواقف»، أولها اعتبار ما يحدث في غزة حربا وليست إبادة جماعية جرّت الكيان الغاصب إلى المتابعة القضائية أمام محكمة العدل الدولية، وثانيها إدانة العنف مهما كان مصدره، علما أن هناك أعمال عنف في غير مكان في العالم، تستوجب الإدانة.

لا يرى قطاع عريض داخل الحركة الأمازيغية أي حرج في القفز على مأساة الشعب الفلسطيني، بتذكيره بأن المغاربة لا ناقة لهم ولا جمل في الصراع، وبالتالي، يَجدُر بالمغرب، ذي الهوية الأمازيغية، أن ينأى بنفسه عن هذا الصراع، وأن يكون أكثر براغماتية في تعاطيه مع ما يستجد على الصعيد الإقليمي، هذا في وقت تُثبتُ فيه المواجهةُ الدائرةُ في غزة أن القضية الفلسطينية لم تعد مجرد صراع بين كيان محتل ومستقوٍ بالغرب وشعب مظلوم يرفض التخلّيَ عن حقوقه المشروعة، بقدر ما باتت، أيضا، عنوانا لجيلٍ جديد من حروب الإبادة التي يتواطأ فيها الغرب ونخبُه وإعلامُه وحلفاؤه في الإقليمِ بكل صفاقة.

للشرعية الفلسطينية ثمن

عوني القلمجي

منذ وقوعها تحت الاحتلال البريطاني، بعد الحرب العالمية الأولى، لم تلق قضية فلسطين أي اهتمام يستحق الذكر. لا من دول العالم ولا من شعوبه. بل كان الصمت المخزي أكثر حضورا، في مواجهة وعد وزير الخارجية البريطاني، بلفور، سنة 1917، «بتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». كما لم تثمر شيئا التظاهرات السلمية التي قادها الحاج أمين الحسيني ضد الاحتلال البريطاني، وهجرة اليهود الى فلسطين. لكن الثورة المسلحة، التي قادها الشيخ عز الدين القسام ضد الوجود اليهودي والانتداب البريطاني عام 1935 غيّرت الوضع، حيث لفتت هذه الثورة المسلحة، واستشهاد قائدها، كثيرا من دول العالم الحر وشعوبه، وخصوصا الشعب العربي، وأحزابه وقواه الوطنية كافة.

وضعت ثورة القسّام المسلّحة، وما أعقبها من عمليات عسكرية واستشهادية، حجر الأساس لمقاومة طويلة الأمد. ودفعت الشعب الفلسطيني إلى الالتفاف حولها. حيث وجد فيها الطريق المؤدّي إلى تحرير فلسطين من رجس الاحتلال البريطاني. شأنه شان الشعوب التي سلكت هذا الطريق، وحرّرت نفسها من رجس الاحتلال، فالمحتلّ، مهما تعدّدت أشكاله واختلفت جنسياته، لن يترك غنيمته طواعية، أو سلميا أو بالتفاوض معه، خصوصا وأن الكيان الصهيوني لفلسطين احتلال استيطاني، يستولي على الأرض ويقتلع سكّانها بالإبادة الجماعية، أو التهجير القسري، ويحوّل البلاد التي يستعمرها إلى أرض مفرغة من شعبها، ليمارس السيطرة المطلقة عليها، من خلال المستوطنين، بدعم غير مسبوق من أكبر الدول الاستعمارية وأشدّها توحشا واستعداداً للقتال، من أجل حماية الكيان الصهيوني، فهو يمثل القاعدة العسكرية والسياسية لتحقيق أهدافها العدوانية، خصوصا في الشرق الأوسط، وتحديدا الدول العربية، التي تعوم على بحور من النفط والغاز والثروات المعدنية والمياه والبحار وطرق المواصلات والقائمة طويلة.

وفي ضوء ما تقدّم، يأتي حرص الدول الاستعمارية المتوحشة على هذا الكيان الصهيوني المسخ، بمفهومه الاحتلالي الاستيطاني الدائم، فهو بمثابة أضخم حاملة طائرات لها في قلب منطقة الشرق الأوسط، كما يرى بعض المفكرين. وعدم وجوده يرفع من تكلفة استراتيجياتها في المنطقة عشرة أضعاف ما تنفقه على هذا الكيان سنوياً. لذا باتت مفهومة العوامل التي تجعل الاحتلال الصهيوني على خلاف الاحتلالات الأخرى، التي تنسحب أحيانا بعد تنفيذ مهماتها، أو تحقيق أهدافها أو سرقة ثروات الشعوب..

وفق هذه المفاهيم، لم يستسلم الشعب الفلسطيني، ولم يتنازل عن سلاحه، منذ 1917، وقد أثبت إنه شعبٌ مقاتل أو شعبُ الجبّارين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقاومة المسلحة لا تسير في وتيرة واحدة، فعلى سبيل المثال، تراجعت المقاومة المسلحة في مرحلةٍ معيّنة، كما حدث بعد قرار تقسيم فلسطين سنة 1947، وهزيمة الحكّام العرب أمام العصابات الصهيونية سنة 1948. وكذلك في فتراتٍ لاحقة، لكنها سرعان ما تعود كالزلزال. وهذه صفةٌ تجمع كل حركة مقاومة ضد المحتل، فمرّةً تأخذ موقع الهجوم ومرّة تنتقل إلى الدفاع ومرّة تنسحب، وفي جميع الظروف، لم تلجا إلى المساومات الرخيصة أو الاتفاقيات المذلة. وليس أدل على ذلك من عودة المقاومة الفلسطينية المسلحة، في أول فرصة سنحت لها، حيث أسّس الشعب الفلسطيني منظمّة التحرير، في مؤتمر القمّة العربي الأول، في القاهرة بتاريخ 1964/1/13، استجابة لدعوة الرئيس جمال عبد الناصر، لمواجهة مشروع الكيان الصهيوني، لتحويل مجرى نهر الأردن. وقد مثل تشكيل منظمة التحرير، تطورا مهمّا باستلام الراحل ياسر عرفات قيادتها. حيث اتخذت قرارا بتفعيل البندقية لتحرير فلسطين. وكانت أول الحروب التي خاضتها ضد الكيان الصهيوني معركة الكرامة المشرّفة عام 1968، بدعم من الجيش الأردني، وألحقت هزيمة نكراء، بطائرات المحتل ودبّاباته ومدافعه وألوية مشاته خلال 15 ساعة. الأمر الذي عزّز الثقة بجدوى الكفاح المسلح، إلى درجة رفضت فيها منظمة التحرير، كل الحلول السلمية، التي توالت بعد نكسة حزيران 1967. ومن ضمنها قرارا مجلس الأمن 424 و338، اللذان يقضيان بانسحاب الكيان الصهيوني من الأراضي التي احتلّها بعد النكسة مقابل الاعتراف به.

لقد نالت المقاومة المسلحة الدعم اللامحدود من الشعب الفلسطيني. وانضوت تحت لواء البندقية جميع الأحزاب والمنظمّات السياسية الوطنية والاجتماعية، وكل الفصائل المسلحة والمجموعات الفدائية، فاستحقّت تسمية المنظمة الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. وتبوأ ياسر عرفات مكانة مرموقة بين رؤساء الدول العربية وملوكها، وكبار رؤساء الدول، ليصل إلى منصّة الأمم المتحدة، ويخاطب أعضاءها باسم الشعب الفلسطيني، مؤكّدا على مشروعية الكفاح المسلح لتحرير فلسطين. واستقبل خطابه أعضاء المنظمة بالإعجاب والتصفيق، بعدها بأيام، وتحديدا في 22 نوفمبر/ تشرين الثاني 1974، اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة القرار رقم 3236، اعترفت بموجبه «بحق الشعب الفلسطيني، في تقرير المصير والاستقلال الوطني والسيادة في فلسطين». كما اعترف القرار بمنظمّة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني، ومنحها مقعد مراقب في الأمم المتحدة. الامر الذي أجبر الحكام العرب على الإقرار بالمنظمة ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني، في مؤتمر القمّة العربية في الرباط يوم 26 نوفمبر/ تشرين الثاني 1974، لتصبح للمقاومة قواعد مسلحة في الأردن ولبنان وسورية. وقد سطّرت المقاومة الفلسطينية المسلحة، بقيادة منظمة التحرير، ملاحم بطولية ضد الكيان الصهيوني، لكن حكّام الردة العرب أصابهم الرعب من توجّه المنظمّة الى السلاح لتحرير الأرض. فكرّروا فعلتهم المشينة عام 1948، فتواطأوا مع الكيان الصهيوني ضد المنظمّة، وألحقوا بها هزائم مؤلمة. بدأت بإخراجها من الأردن 1970، ثم من لبنان 1982 وانتهت زعاماتها ضيوفا على الحكومة التونسية.

هذه المؤامرة الكبرى، التي حاكها التحالف الأميركي الصهيوني مع حكام الردة ضد المقاومة الفلسطينية، لم تتعرّض لمثلها أية حركة تحرّر في العالم، ولا مقاومة ضد محتل. فبالإضافة إلى الهزائم، انقلب القائد الثائر ياسر عرفات على عقبيه، وتحوّل الى عراب التسويات السلمية مع المحتل، وقاد منظمة التحرير الى عقد اتفاقيات مذلة مع الكيان الصهيوني، فرّطت بالحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني، فاقت مذلة الاتفاقات، التي عقدتها مصر والأردن ودول عربية. وكان النموذج الأسوأ لهذه الاتفاقيات وأشدّها ضررا اتفاق أوسلو مع الكيان الصهيوني، سنة 1993. حيث تضمّن اعتراف المنظمة، اعترافا كاملا بهذا الكيان، وبسيادته على 78% من أرض فلسطين التاريخية، مقابل إقامة سلطة فلسطينية منزوعة السلاح، على المساحة المتبقّية من أرض فلسطين، في مدّة أقصاها سنة 1999. وبدلا من التزام الكيان الصهيوني بتنفيذ هذا الاتفاق في موعده المحدد عام 1999، واصل حكامه سياساتهم العدوانية ضد السلطة الفلسطينية، في الضفة الغربية وقطاع غزّة. ومنها بناء مزيد من المستوطنات المسلحة، على حساب الأراضي الفلسطينية، المشمولة بتلك الاتفاقية المشؤومة.

ارتكبت منظمة التحرير، وياسر عرفات بالذات، خطأ استراتيجيا قاتلا احتاج الى ثلاثة عقود لتخطّيه. حيث حدثت خلالها خلافات حادة داخل حركة فتح، وبين الحركة والفصائل الأخرى. فعلى سبيل المثال، شكّل في نهاية عام 1974 صبري البنا (أبو نضال)، حركة تحت اسم حركة فتح المجلس الثوري. وفي سنة 1980 استقل عبد الكريم حمدي، بتنظيم مستقل سمّاه فتح مسيرة التصحيح. وفي سنة 1983، قامت مجموعة من القياديين البارزين في فتح، بزعامة نائب قائد قوات العاصفة، نمر صالح والعقيدين أبو موسى وأبو خالد العملة، بتأسيس تنظيم، سمّي «فتح الانتفاضة» شقّ «فتح» إلى نصفين. وأدّى هذا إلى عدة معارك بين فتح والمنشقين في البقاع وطرابلس وبيروت، لتنتهي إلى تشكيل جبهة رفض ضد منظمة التحرير وياسر عرفات.

ولكن شعب الجبارين رفض، في نهاية المطاف، الاستكانة واستجداء الحقوق من محتل غاصب. حيث خرجت من رحم الهزيمة مقاومةٌ أشد قوة وأكثر فاعلية، اتّخذت من قطاع غزّة قاعدة انطلاق لها، بصرف النظر عن التوجّه الإسلامي لغالبية فصائل المقاومة في غزّة، فالإسلام السياسي مثل في مراحل عديدة العمود الفقري لمقاومة المحتلين. فعلى سبيل المثال، لعب رجال الدين في ثورة العشرين المجيدة ضد المحتل البريطاني دورا بارزا إلى جانب العشائر وتجار المدن. وكذلك ثورة المهدي في السودان، وخير الدين باشا في تونس، وعبد القادر الجزائري وابن باديس في الجزائر، وعزّ الدين القسام في فلسطين، وعمر المختار في ليبيا، وقد خاض هؤلاء الكفاح المسلح في بلدانهم تحت شعارات الجهاد. لكن جهادهم، في الوقت نفسه، مثّل كفاحاً وطنياً ضد الاستعمار. وإذا كان السبب في تلك الفترة غياب الأحزاب والمنظمّات السياسية والعلمانية واليسارية، فإن ما يحدُث اليوم مشابه لما حدث بالأمس، فقد تغيب معظم الأحزاب والقوى الوطنية عن ساحات الكفاح، بل ارتضى بعضها التعاون مع المحتل، وأصبح العهر السياسي والخيانة بالمفرد والجملة، وجهة نظر ومسألة خاضعة للنقاش. ليس هذا دفاعا عن الإسلام السياسي، لا في غزّة ولا في غيرها، فكاتب هذه السطور ذو توجه قومي يساري، وانما هو إقرار بالواقع. ثم هل بإمكان أي وطني يقاتل المحتل، وفي الوقت نفسه، يرفض عملية طوفان الأقصى البطولية، التي أصبحت حديث العالم، ونالت احترام شعوبه، لتخرُج الملايين في بقاع الأرض، تأييدا للشعب الفلسطيني، في سابقة تاريخية لا شبيه لها إطلاقا، أعادت ملف القضية الفلسطينية إلى الصدارة، بعد أن طواها النسيان، أو كادت تدخل في خانة الذكريات الوطنية؟

> ألا يحق لغزّة اليوم، بمقاتليها ومقاومتها وشهدائها وتضحياتها، أن تكون الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، بعد أن أوفت بكامل استحقاقات هذا التمثيل؟
>
> رفض شعب الجبارين، في نهاية المطاف، الاستكانة واستجداء الحقوق من محتل غاصب، حيث خرجت من رحم الهزيمة مقاومةٌ أشد قوة وأكثر فاعلية

أما على أرض الواقع، وفيما يخص المقاومة المسلحة في غزّة، صاحبة القرار الأول والأخير، فان شعب فلسطين عموما يقف خلفها ويشكّل حاضنتها الاصيلة. ومن يدّعي أن شعب فلسطين في الضفة الغربية رفض عملية طوفان الأقصى، فهذا ادّعاء تكذّبه التظاهرات في الضفة، والتي استشهد فيها مئات الفلسطينيين، واعتقل آلاف من ابنائها، عبر اقتحامات متواصلة لقوات الاحتلال لمخيّمات عديدة، وتدمير همجي للمدن، مثل طولكرم وجنين ونابلس وبيت لحم وغيرها الكثير.

الكيان الصهيوني، بكل قدراته العسكرية، ونزعته العدوانية التدميرية، فشل ويفشل في عزل المقاومة عن حاضنتها الأصيلة، المتمثلة بالشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة. بل ان فلسطينيي 48، الذين تحت سلطة الاحتلال، ويحملون الجنسية الإسرائيلية، يقفون اليوم خلف المقاومة، في غياب كامل للسلطة الفلسطينية المعزولة والمُدانة، الأمر الذي اضطر رئيسها محمود عباس، الى التراجع عن تصريحاته المسيئة، ليدين الإبادة الجماعية في غزّة، ويطالب بوقف الحرب فورا. تُرى هل ما زالت السلطة الفلسطينية، برئاسة محمود عبّاس المعزولة عن شعبها، هم الممثلون الشرعيون للشعب الفلسطيني؟ أم أن الذين يحملون السلاح هم من يمثل الشعب الفلسطيني؟

بعد كل ما حدث ويحدُث، هل يليق بشعب الجبّارين، الشعب المقاتل، الشعب الذي قاد عملية طوفان الأقصى، أن تمثله السلطة الفلسطينية، التي تعدّ اليوم أداة أمنية بيد حكومة الكيان، وتنفذ أوامر رئيسها نتنياهو؟ السؤال الأشد حضورا، تُرى، ألا يحق لغزّة اليوم، بمقاتليها ومقاومتها وشهدائها وتضحياتها، أن تكون الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، بعد أن أوفت بكامل استحقاقات هذا التمثيل، وسدّدت الثمن غير منقوص؟

(كاتب عراقي في كوبنهاغن)

ليس دفاعاً عن الإسلاميين

راتب شعبو

من السهل نقد الإسلاميين. القليل من الاتساق المنطقي كافٍ لإظهار ضعف الأرضية التي يقفون عليها في زعمهم أنهم يمثلون الإسلام في السياسة. والحقّ أنه ليس بمقدور أي جماعة منهم إقناع أحد (عدا أنصارها) بتمثيل الإسلام. كلّ جماعةٍ منهم تمثّل «إسلاماً» يخصّها، وغالباً ما يكون إسلاماً مبسّطاً وقطعياً وفقيراً، كي يصبح قادراً بالتالي على أن يكون أداة سياسية. وتحويل «إسلام» جماعةٍ ما من جماعات الإسلام السياسي إلى «الإسلام»، بما يعني ذلك من تمثيلها الأمة، يحتاج إلى فرض ذاتها بالقسْر والعنف، أكانت الجماعة في السلطة أو خارجها، وهو ما يفسّر ميل معظم هذه الجماعات إلى العنف. وحين أتيح للإسلاميين أن يحكموا، كما في السودان جعفر النميري أو عمر البشير، كانوا دمويين، ولم يقدّموا، في الواقع، نموذجاً ناجحاً في إدارة المجتمع، وقد جمعوا، مثلهم في ذلك مثل غيرهم، بين التسلط والفشل التنموي.

حين نقول «الإسلاميين» نقصد الجماعات التي تستند في تدخّلها في الشأن السياسي العام إلى الإسلام، ليس بوصفه ثقافة وإطاراً حضارياً، بل بوصفه ديناً، وتُمارس السياسة على أنها وسيلة لتحقيق الغاية الكبرى التي هي سيادة الإسلام (الصورة التي يعتقدونها عنه، وعلى الشاكلة التي يتخيّلونها)، ويبقى كل ما دون هذه الغاية، مؤقتاً وتكتيكياً، وتبقى كل علاقة مع قوى غير إسلامية، أو حتى مع قوى إسلامية مغايرة، مجرّد ممرّ وعبور إلى غاية هي ما يتصوّرون أنه الدولة الإسلامية أو الخلافة الإسلامية أو المجتمع المسلم الصحيح... إلخ. يشبهون في ذلك، رغم التضادّ الفكري الصريح، التيار السياسي الشيوعي الذي وسم معظم القرن العشرين، وسيطر في بلدان عديدة وشكل قوة عظمى في مواجهة «العالم الحر»، قبل أن يكتشف أن غايته العليا المتخيّلة، أي المجتمع الشيوعي، التي تجعل كل ما دونها (تحالفات، هدن، مساومات... إلخ) مؤقتاً، كانت أقصى بكثير مما تصوّر، وأن «المؤقت» لم يكن، في المحصلة، سوى سيطرة هذا التيار التي امتدّت بضعة عقود... غير أن هذا المقال لا يذهب إلى نقد الإسلاميين، بل يذهب في اتجاه معاكس بالأحرى، ليقول ما للإسلاميين وليس ما عليهم.

ما لا يمكن إنكاره لدى الإسلاميين ثباتهم وفشل محاولات محوهم المتكرّرة، الأمر الذي يتجلّى في قدرتهم على النهوض وجاهزيّتهم المستمرّة على العمل بطاقات متجدّدة، وعلى تقديم التضحيات. كما لا يمكن إنكار حسن تنظيم الإسلاميين شؤونهم بما يمكّنهم من الظهور على غيرهم. أكان ذلك في البلدان ذات الغالبية المسلمة أو في البلدان التي يشكّلون فيها أقلية، وبصورة خاصة، البلدان الديمقراطية التي تسمح بحرّية النشاط والتعبير، فهم في هذه البلدان يفهمون شروط العمل، ويستفيدون منها على أفضل وجه، في النشاط المتعدّد المستويات لصيانة ما يعتبرونه هويّتهم الخاصة، وفي تشكيل الجمعيات وإدارتها وشبك العلاقات، وينتهي ذلك كله إلى إنشاء هيكلية مؤثرة ومثابرة، تقدّم الخدمات بطريقة فعّالة لمناصرة توجّهات سياسية محددة يريدونها.

غالباً ما يتفوّق الإسلاميون في المجال النضالي الذي ينخرطون فيه. يصحّ هذا في الصراع ضد أنظمة حكم محليّة، كما شهدنا في الثورات العربيةً في مستهل العقد الثاني من هذا القرن، أو ضد احتلال، كما شهدنا في لبنان وفلسطين. وغالباً ما يُنسب تفوّقهم إلى عاملَيْن من خارجهم، الأول هو الدعم الخارجي، والثاني هو تديّن المجتمع أو «ثقافته». على أهمية هذين العاملين، يغفل هذا التفسير العامل الأهم، وهو الانضباط التنظيمي للعناصر واستعدادهم النضالي العالي، ذلك أن هذا العامل هو المحلّ الذي يستقبل الدعم الخارجي ويجعله مُجدياً، وهو أيضاً الأداة التي تستثمر في الطاقة «الثقافية» للمجتمع. والحقيقة أن الإسلام السياسي في المجتمعات المسلمة غالباً ما يبدو كأنه الامتداد السياسي العضوي للمجتمع. إذا كانت التيارات السياسية «الحديثة» تعاني بعض الاغتراب عن مجتمعاتها المسلمة وتحتاج إلى طاقة إضافية كي تغرس نفسها في المجتمع، فإنّ التيار الإسلامي لا يعاني من هذه المشكلة، على العكس فإنّ هذا التيار يجتهد في معالجة ما يراه مظاهر اغتراب المجتمع عن ذاته. التيار الإسلامي ينظر إلى نفسه على أنه ذات المجتمع.

يوحي الإسلاميون في جدّيتهم ومثابرتهم أنهم ينطلقون في المجال الذي يعملون فيه من قناعة راسخة في أنهم هم أصحاب «القضية». وهم قادرون على خدمة ما يزعمونه، ليس فقط بفضل عزيمتهم الناجمة عن إيمانهم العميق بأنهم ممثلو مجتمعهم وحماة هويّته، وإنما أيضاً بفضل ما تتيح لهم هذه القناعة من تسويغ كل ما يساعدهم على خدمة «القضية». وفي السياق، ينظر الإسلاميون إلى الجماعات السياسية الأخرى أنها طارئة وخارجية. والحقّ أنّ الإسلاميين يثبتون على الدوام أنهم الأكثر قدرة على الثبات، والأكثر صلة بمجتمعهم، الأمر الذي غالباً ما يحيل الجماعات الأخرى إلى الهامش، لا تملك سوى الشكوى من سيطرة الإسلاميين. إذا وضعنا جانباً المآخذ السياسية والأمنية المعروفة، وهي صحيحة، فإنّ المقارنة بين العمل المسلح ضد إسرائيل في جنوب لبنان قبل حزب الله وبعده تظهر فارقاً مهماً لصالح الحزب، من ناحية الانضباط والفاعلية العملياتية والإنجاز. وفي ما لو تناولنا عملية طوفان الأقصى، بوصفها عملاً عسكرياً معزولاً عما استجرّه من انتقام وحشي طاول سكّان غزّة الذين لم يُجهزوا مسبقاً بوسائل الحماية اللازمة، ولا بالمؤن الضرورية ... إلخ، ومعزولاً عمّا تضمّنته العملية نفسها من استهداف للمدنيين (تأخّرت حماس كثيراً في نشر وثيقة أصدرتها أخيرا بعنوان «هذه روايتنا» توضح فيها أسباب العملية، وأنها لم تتقصد استهداف المدنيين)، فإنها تشير إلى إرادة ثابتة عند الإسلاميين، وإلى أنهم جاهزون للمضي إلى أقصى ما يمكن تصوّره في الإعداد والتنفيذ، لتحقيق ما يريدونه. في سورية أيضاً، وبعد وقت قصير من اشتعال الثورة السورية، سيطر الإسلاميون على كامل مفاصل العمل المواجه للنظام، إن على المستوى العسكري أو السياسي أو الإغاثي، أما الهيئات المستقلة عن الإسلاميين، فقد كانت، وما زالت، ذات فاعلية محدودة.

> الإسلاميون يثبتون على الدوام أنهم الأكثر قدرة على الثبات، والأكثر صلة بمجتمعهم، الأمر الذي غالباً ما يحيل الجماعات الأخرى إلى الهامش

الاستناد إلى الدين بوصفه المصدر الذي يستمدّ منه الإسلاميون مشروعيتهم وأحقيتهم يشكل بوّابة النقد الأساسية التي تطاولهم، لكنه يشكّل، في الوقت نفسه، مصدر قوتهم وتجدد طاقاتهم. ومن المرجّح أن يبقى هذا الحال طويلاً في أمة مشت حضارتها الغابرة يداً بيد مع دينها وتسمّت باسمه.

(كاتب سوري في فرنسا)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads